الفصل الخامس

فرصة الخلاص الضائعة

خلال الشهور الأخيرة من عام 1999م، سعت إدارة بيل كلينتون لتحقيق تقدم على المسار السوري الذي أصابه الجمود خلال سنوات حكم نتانياهو الثلاث، وكان ما شجع كلينتون وأفراد إدارته على المُضِيّفي مسار السلام السوري هو نية رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد إيهود باراك سحب قواته من جنوب لبنان بعد غرقها في مستنقع هجمات حزب الله الذي كبدها خسائر فادحةً خلال سبعة عشر عامًا خلت، هذا من ناحية.

من ناحية ثانية، هدف باراك إلى الضغط على ياسر عرفات للمُضِيّفي مفاوضاته مع إسرائيل وفق شروط إسرائيل المجحفة، ومن ناحية ثالثة كان باراك يهدف لتفكيك التحالف بين سوريا وإيران خاصةً مع الهلع الإسرائيلي من تغلغل إيرانفي الشرق الأوسط وعلى حدود إسرائيل عبر تحالفها مع نظام الأسد، مع خشية باراك من إمكانية حصول إيران على

سلاح نووي يخل بالتوازن الاستراتيجيفي المنطقة،وعقد سلام مع سوريا سيفكك هذا التحالف ويزيل هذا الخطرعن إسرائيل.

زاد من رغبة باراك في السيرفي مسار السلام السوري ما سمعه من الكاتب البريطاني "اليهودي" باتريك سيل الذي كتب السيرة الذاتية لحافظ الأسد،حيث التقى سيل باراك وأكد له جدية الأسدفي التوصل لاتفاق بشرط أن يتدخل بيل كلينتون شخصيًا لإتمام الاتفاق،وحتى يدلل سيل على صدق كلامه نقل سيل بيانات بين باراك والأسد.

ازداد اقتناع باراك بإمكانية تحقيق إنجازفي عملية السلام مع سوريا ما نقله إليه رجل الأعمال الأمريكي رونالد لاورد من رغبة الأسد منذ صيف 1998مفي الوصول إلى اتفاق سلام مع إسرائيل،ولدى لقائه مع دينيس روس مبعوث السلام الأمريكي للشرق الأوسط نقل إليه باراك موافقة الأسد على التعايش مع أقل من انسحاب إسرائيليلحدود الرابع من يونيو 1967م.

أكد باراك نفس الكلام عندما هاتف كلينتون،وخلال محادثته الهاتفية مع كلينتون فَجَّرباراك مفاجأةً مدويةًبإخباره أن لاورد يحمل معه ورقةً من نتانياهو من عشرنقاط ادعى موافقة الأسد عليها،طالبًا من الرئيس الأمريكيلقاء لاورد للوقوف على حقيقة ذلك الأمر.

اقترح كلينتون أن يكون روس موجودًا خلال لقائه مع لاورد ليعرف منه حقيقة الورقة ذات النقاط العشر،وخلال لقاء استمرثلث الساعة مع روس قَصَّ عليه لاورد كيف قضى خمسة أسابيع بين واشنطن وتل أبيب، حيث التقى وليد المعلم السفير السوري في أمريكاالذي نقل له رؤية حافظ الأسد لاتفاقية سلام مع إسرائيل،وكان لاورد ينقلها بدوره لبنيامين نتانياهوحيث أبدى الأسد مرونةً بحسب لاورد.

مع طلب لاورد المغادرة،سأله روس حول محتوى الورقة ذات العشر نقاط، رد لاورد بحزم:

"عفوًا،لن أطلع عليها سوى الرئيس."

أراد روس معرفة ماهية مرونة الأسد،فَرَدَّ عليه لاورد:

"المرونة فيما خص الحدود ومحطات الإنذار المبكر والترتيبات الأمنية."

أخرج روس من جيبه خريطةً طلب أن يحدد مرونة الأسد بخصوص الحدود،فأشارلاورد إلى أن الأسد موافق على رسم الحدود بعيدًا عن بحيرة طبرية ونهر الأردن،ثم سَلَّم لاورد ورقة النقاط العشر لكلينتون،حيث كانت تحمل عنوان معاهدة سلام بين سوريا وإسرائيل شملت النقاط الآتية:

-1إنهاء حالة الحرب بين البلدين عقب توقيع الاتفاقية.

-2سحب إسرائيل قواتها من الأراضي السورية المحتلة في حرب 1967م إلى الحدود الدولية المرسمة عام 1923م.

-3إتمام الانسحاب على ثلاث مراحل وكان هناك خلاف حول المدة الزمنية، حيث كان الأسد يريد انسحابًا خلال ثمانية عشر شهرًا، فيما كان نتانياهو يريد الانسحاب خلال ثلاثين شهرًا.

-4توقيع لبنان اتفاقيةً مع إسرائيل بشكل متزامن مع توقيع سوريا، مع تَعَهُّد سوريا بضمان عدم شن هجمات ضد إسرائيل انطلاقًا من لبنان.

-5وضع ترتيبات أمنية مع ترك صياغة النص لبيل كلينتون.

-6وجود ثلاث مناطق تحد من انتشار القوات:

منطقة منزوعة السلاح وهي الجولان، ومنطقة خالية من السلاح الهجومي تمتد إلى الطريق السريع قبل دمشق والثالثة هى القنيطرة.

-7وجود محطات إنذار مبكر في الجولان بإشراف جنسيات متعددة أمريكية وفرنسية وإسرائيلية مع إشراف سوري بالطبع.

-8إقامة تطبيع كامل للعلاقات بين البلدين.

-9التعامل مع حقوق البلدين المائية واحتياجاتهما وفق القوانين الدولية.

-10عمل سوريا على جعل السلام مع إسرائيل سلامًا شاملًا.

كانت الشكوك تطارد كلينتون فيما خص هذه الورقة، خاصةً فيما يتعلق بمحطات الإنذارالمبكر،فكلينتون لم يقتنع أبدًا أن الأسد سيوافق على وجودها من الأساس، فكيف يقتنع بوجود إسرائيلي فيها عقب الانسحاب؟! هذا بالإضافة لحدود الانسحاب التي قد يقبل بها الأسد.

اقترح دينيس روس أن يلتقي ووزيرة الخارجية مادلين أولبرايت لاورد ويتناقشا معه حول ما يمكن أن يشكل عائقًاللوصول إلى اتفاقية سلام،فكان رد لاورد مطابقًا لشكوك كلينتون،فأبلغاه بمقترح كلينتون إرسال الوثيقة للأسد حتى إذا ثبتت موافقته عليها مضت الولايات المتحدة في الوساطة لعقد اتفاقية سلام بين الجانبين.

اتصل كلينتون بالأسد وأبلغه بالقصة كاملةً،وكانت مفاجأة الأسد عندما أقر بلقاء لاورد، لكنه نفى علمه بأمرورقة النقاط العشر، وطلب من كلينتون إرسال ورقة لاورد ليرد عليها،فأمركلينتون روس بإرسال الورقة إلى السفير الأمريكي بدمشق حيث سينقلها بنفسه إلى الأسد في مظروف دون أن يَطَّلِع أحد عليها.

أبلغ كلينتون باراك بما داربينه وبين الأسد،فاقترح باراك إنشاء قناة خلفية للمفاوضات بينه وبين الأسد وما إن عرض كلينتون الأمرعلى دينيس روس حتى أبدى روس ملحوظةً هامةً لعل وعسى تدفع في الاتجاه الصحيح.

رأى روس أن القناة السرية هذه المرة يجب أن تكون ثلاثيةً هذه المرة،أي أن تشمل سوريا وإسرائيل والولايات المتحدة لا ثنائيةً كما كانت في حالة كامب ديفيد أنور السادات وأوسلو ياسرعرفات؛حيث سيرضي ذلك غرورحافظ الأسد الذي سيعتقد أنه يعمل مع الراعيالأمريكي وفق شروطه.

وافق كلينتون على الفكرة،وهَاتَفَ الأسد ليبلغه بتلهف باراك لعقد اتفاق سلام،وبالفعل أبدى حافظ الأسد اهتمامًا، وبدأ يستفسرعن تفاصيل المحادثات السرية وأين ومتى ستجرى ومن سيرسله باراك مندوبًا عنه وكذلك من سيرسله كلينتون.

رد كلينتون على استفسارات الأسد،ففيما يخص مبعوثه فهو دينيس روس، أما باراك فسيرسل أوري ساجيالعسكري المتقاعد،وأما الأسد فأرسل رياض الداوودي المحامي بوزارةالخارجية السورية الذي شارك في مباحثات 1996م.

وصل ممثلو الأطراف الثلاثة إلى العاصمة السويسرية برن منتصف نهار السادس والعشرين من أغسطس 1999م،وبعد نَيْل قسط من الراحة اجتمع الداووديبروس في المساء وأُسْقِط في يد روس مما سمعه من رياض.

أكد رياض الداوودي في معرض حديثه أنه موكل من الأسد بالوصول لاتفاق قائم على ما عرف بوديعة رابين أي الانسحاب من هضبة الجولان إلى حدود الرابع من يونيو 1967م،بالتالي فإن الأسد يريد تأكيدًا من إسرائيل على تعهدات رابين، عندما أبلغ روس أوري ساجي بما حدث، رأى ساجي أنه من الأفضل أن يتواصل الثلاثة بشكل غيررسمي على مائدة إفطار اليوم التالي.

تواصل ساجي والداوودي سريعًا بشكل أذهل روس وشَجَّعَه في آن واحد،فقد أبدى ساجيأنه وباراك مهتمان بالأمن والمياه فيما يهتم الأسد بالأرض،وبعد استراحة للتشاور بين روس والرجلين حول أفضل سبل متابعة المفاوضات،بدأ الثلاثة حوارًا امتد من وقت الغداء حتى ما بعد العصر، أجمل فيه كل منهما ما يتوقعه من الاتفاق.

بدأ الشيطان يظهرفي تفاصيل المناقشات، فعندما سأل الداوودى ساجي حول الانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو، قَيَّد ساجي موافقته ببحث ما أسماه"فجوة الجانبين بشأن الحدود" علاوةً على أسئلة تقنية حول الحدود تريد إسرائيل جوابًا لها، خاصة بشأن علاقة المياه بالحدود.

اقترح الداوودي أن تُدَوَّن نقاط الاختلاف، وهو ما قوبل برفض ساجي؛ معلـلًا ذلك بوجوب توصل الجانبين إلى مزيد من التفاهمات، لكن الداوودي أبلغه أنه يجب أن يعود لدمشق بصيغة مكتوبة حول حدود الرابع من يونيو، فَرَدَّ ساجي رَدًّا قاطعًا:

"لا أستطيع كتابة شيء الآن."

للالتفاف على هذه المشكلة، اقترح روس على مادلين أولبرايت ومستشار الأمن القومي ساندي برجر صيغةً ترضي الطرفين، فقدم مسودة نص تفيد بعدم سحب وديعة رابين دون الإشارة لحدود الرابع من يونيو حتى لا يغضب ذلك باراك، وافق برجر وأولبرايت على اقتراح روس، لكنهما طلبا منه عرضه على ساجي قبل الداوودي.

وافق ساجي على صيغة روس التي حَمَلَت قبل كل مقترح كلمة يجب بدلًا من سوف أو حرف السين الدال على المستقبل، وحصل بموجب ذلك على موافقة باراك، وما إن عُرِضَت الصيغة على الداوودي حتى أبدى رد فعل مختلف.

أراد الداوودى وضع سوف، لكن روس أقنعه أنه قدم اختراقًا هامًا بعد عناء، خاصةً فيما يتعلق بوديعة رابين التي وافقت الإدارة الأمريكية على ضمانها لأول مرة في تاريخ مفاوضات الجانبين.

اعترف الداوودي أن ما وصل إليه روس خطوة هامة للأمام، لكنه أبدى تخوفًاألا تكون كافيةً لدى حافظ الأسد،هنا أخرج روس ورقة لاورد ذات النقاط العشروعرضها على الداوودي واصفًا له مدى حماسة الرئيس كلينتون لتنفيذها، مظهرًا تعليقاته الخطية عليها،غير أن الداوودي أصر على وضع حدود الرابع من يونيو بدلًا من حدود 1923م.

عقب انتهاء العشاء،اتصل الداوودي وروس كل بعاصمته لإطلاع أصحاب الحل والعقد على مادار،في حين أبلغ روس باراك بصيغته التي وضعها،وبمجرد موافقة باراك عليهاحتى قال له رئيس الوزراء الإسرائيلي:

"سأعارض أية صيغة أمريكية تتجاوز تلك التي وضعتها."

صباح اليوم التالي طلب رياض الداوودي الاجتماع منفردًا مع دينيس روس،حيث نقل إليه موقف وزير الخارجية فاروق الشرع الذي طالب بالاعتراف بصيغة الرابع من يونيو ليس إلا، وأن أي شيء آخر لن يصلح ليكون نقطة انطلاق المفاوضات الرسمية المتوقفة.

انتهى اجتماع برندون التوصل حتى لاتفاق مبادئ يمكن البناء عليه،لكن روس حصل على موافقة من حافظ الأسد وإيهود باراك على خوض مفاوضات سرية عقب انتهاء جولة مادلين أولبرايت في الشرق الأوسط في سبتمبر، على أن يخبرهما لاحقًا بمكان عقد المفاوضات السرية.

اتفق روس مع الجانبين الإسرائيلي والسوري على بدء المفاوضات في واشنطن منتصف سبتمبر 1999م، وزاد حماس روس طلب باراك الإسراع في المفاوضات للوصول إلى اتفاق بحلول منتصف أكتوبر 1999م، لكنه بحاجة لمعرفة موقف السوريين بشأن قبول السوريين بحدود بعيدة عن الربع الشمالي من بحيرة طبريا ونهر الأردن، عبر نقل الحدود من الشمال إلى الشرق قليلًا.

الرابع والعشرون من سبتمبر 1999م، وصل رياض الداوودي بصحبة المسئول العسكري العميد إبراهيم عمر في فندق حياة بمدينة بتيسدا عاصمة ولاية ميريلاند، فيما تأخر وصول أوري ساجي بسبب عاصفة ضربت الساحل الشرقي للولايات المتحدة.

نزل المفاوضون الثلاثة في ثلاثة طوابق منفصلة بالفندق، ولم تخبر سفارتا بلديهما بشأن الزيارة، وأُعْلِم روس من داني ياتوم المسئول بالخارجية الإسرائيلية أن المفاوض الإسرائيلي مع الفلسطينيين يوئيل سنجر سيحضر المفاوضات مع ساجي، ما أوحى لروس بنية باراك صياغة وثيقة إطارية تمثل مدخلًا لاتفاقية سلام مع السوريين؛ نظرًا لخبرة سنجر في هذا الصدد.

اجتمع روس أولًا مع المفاوضَيْن السوريَيْن اللذَيْن قدما له عروضًا متشددةً مقارنة حتى بمفاوضات 1996م، وَرَدَّ روس عليهما بأنهما يجب أن يعيدا

النظر بشأن الحدود خاصة بعدما عرض الداوودي امتداد الحدود لمائتي متر داخل بحيرة طبريا، وأن تكون المناطق الأمنية متساويةً على جانبي الحدود،كان هذا المقترح بخصوص الترتيبات الأمنية التالية للانسحاب.

غضب ساجي لما سمعه من مقترحات رياض، واعتبر أن مائتي متر داخل البحيرة أمر مستفز،وزاد ساجي على ذلك بطلب الرجوع إلى الخرائط،غير أن روس بدا قلقًا لذلك الأمر، خاصةً أن البدء بالخرائط معناه الحديث عن حدود الرابع من يونيو التي يشدد عليها الأسد لاستكمال المفاوضات، وكان روس مستغربًا لهذا الأمر.

لكن استغراب روس سرعان ما زال بعد معرفة نوايا ساجي،فأية خريطة لن تحتوي على حدود الرابع من يونيو 1967م،حتى إن ساجي صرح لروس بقوله:

"إن هذا الخط هو حيث كانت القوات السورية موجودةً عام 1967م،وإذا كان ذلك هو مقصد الأسد فسنحقق تقدمًا سريعًا."

عرض روس على الداوودي طلب ساجي بالعودة إلى الخرائط،ورَحَّبَالداوودي بالخطوة، وأسفر الأمر عن عقد اجتماع مباشر بين ساجي والداوودي،واقترح ساجي خلال اللقاء أن تشكل مواقع القوات السورية أساسًا لمباحاثاتهما.

لم تدم هذه الأجواء الإيجابية طويلًا، فسرعان ما تنازع الرجلان حول المواقع التي تواجدت بها القوات السورية قبل حرب 1967م، حيث أشار ساجي إلى أن القوات السورية لم يكن لها وجود شمال بحيرة طبرية، لكن العقيد عمر رفض ذلك الادعاء مشيرًا إلى جسر كانت تتواجد عليه قوات بلاده، فادَّعَى ساجي أن القوات السورية تركت مواقعها على هذا الجسر قبل الحرب بعدة أسابيع، فرفض العقيد عمر ذلك الأمر، واستمر الجدل بينهما زهاء ساعتين دون الوصول لحل.

اقتنع أوري ساجي أنه لن يستطيع إقناع إبراهيم عمر بما تريده إسرائيل من مواقع خلال هذه المحادثات، ويُفَضَّل الآن أن يشرح الاحتياجات الإسرائيلية، ومرةً أخرى سأل رياض الداوودي ساجي:

هل توافق على الانسحاب إلى خطوط الرابع من يونيو؟

رَدَّ ساجي:

"نعم، ولكن إسرائيل بحاجة إلى مناطق شرق نهر الأردن وشرق أقصى شمال البحيرة."

كانت تلك المنطقة التي طلبها ساجي واديًا زراعيًا خصبًا حُرِم منه المزارعون السوريون عقب احتلال الجولان، وهنا بدا العقيد عمر غاضبًا، وقال بالعربية لساجيفي لهجة مستنكرة:

تريد أرضًا سوريةً؟

أنهى عمرو الداوودي اللقاء عند هذا الحد،وهنا انفرد روس بالداوودي وقال له:

ماذا لو أراد باراك حَيِّزًا صغيرًا خارج البحيرة؟

وأخرج روس من جيبه الخريطة التي حدد عليها باراك ذلك الشريط الضيق الذي طلب أن تسيطر عليه القوات الإسرائيلية عقب انسحابها من هضبة الجولان بأكملها،وسأله روس باهتمام:

هل توافقون على انسحاب إسرائيل من الجولان في مقابل استمرار سيطرتها على عشرة أمتار خارج بحيرة طبريا؟

رد الداوودي بعدما تَمَعَّن في الخريطة:

"لا أستطيع إعطاءك جوابًا الآن،لكن على حد علمي يمكن أن توافق الحكومة السورية على خمسين مترًا خارج البحيرة."

كانت هذه المسافة أقل مما تطلبه إسرائيل لتفي بما اعتبرته احتياجاتها الأمنية، لكنها أظهرت لروس مرونة السوريين في هذا الأمر،وكعادته لم يتأخر روس في إخبار ساجي بما دار بينه وبين الداوودي.

فَضَّل ساجي قطع المحادثات والعودة لإسرائيل لإطلاع باراك على الأمر،وظهر الداوودي كذلك غير قادر على التقدم أكثر من ذلك بشأن حدود ما بعد الانسحاب، فشكره روس وقال له إنه وكلينتون سيناقشان الأمر مع فاروق الشرع وزير الخارجية السوري خلال حضوره اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة.

كان سليم الحص رئيس الوزراء غير آبه بما يجري بين نظام الأسد وحكومة باراك وكذا حزب الله وإيران حليفا الأسد معتبرين الأمر شأنًا سوريًا،وكان الشخص الوحيد الذي فتح خط اتصال مع روس على الساحة اللبنانية هو رفيق الحريري.

رأى الحريري في تقدم المفاوضات السورية الإسرائيلية خطوةً هامةً على طريق الخلاص من الوجود السوري غير المرغوب فيه لبنانيًا، فالذريعة الرئيسة التي طالما تَشَدَّق بها حافظ الأسد لفرض احتلاله على لبنان هو الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان،وحال عقدت معاهدة السلام بين الجانبين تعقبها معاهدة سلام مع لبنان وجب على الأسد وحزب الله توضيح أمرين:

الأول:ما الداعي لوجود قوات سورية في لبنان بعد عقد سلام مع إسرائيل؟

الثاني:ما فائدة احتفاظ حزب الله بسلاحه بعدما تحررت الأرض اللبنانية المحتلة؟

لذا كان الحريري يهاتف روس ليعرف منه تطورات المفاوضات، حاثًّا إياه على ألا يَدَّخِر جهدًا للخروج باتفاق سلام سوري إسرائيلي يخطو بمشروع الحريري خطوةً كبيرةً للأمام في صراعه المرير مع حافظ الأسد وأزلامه في لبنان.

عقب وصوله للولايات المتحدة،اجتمع الشرع مع روسبعدما صافح الشرع الرئيس كلينتون وتصادف وجود رونالد لاورد خلال اللقاء،حيث سَلَّم الرئيس الأمريكي ورقةًمن ثماني نقاط زعم موافقة نتانياهو والأسد عليها صيف1998م،لكن الورقة كانت مغايرةً لما عُرِضَ على كلينتون في السابق.

حلت حدود الرابع من يونيو1967م محل حدود 1923م،اختفى منها كذلك مسئولية سوريا عن وقف الهجمات المنطلقة من لبنان ضد إسرائيل وحلت محلها الإشارة لمعاهدة بين لبنان وإسرائيل،واختفت الإشارة لوجود إسرائيل في محطات الإنذار المبكرولم يحل محلها شيء.

عرض كلينتون الورقة على الشرع الذي وافق عليها، لكنه تنبأ برفض باراك لها،لكن روس استطاع إقناع باراك باستمرار المحادثات.

شرحت مادلين أولبرايت خلال لقائها معه لنظيرها السوري أهمية ظهور باراك محتفظًا ببحيرة طبرية حتى لا تهتز ثقة الإسرائيليين به، لكن الشرع رأى أن سيادة بلاده يجب أن تكون حتى حدود الرابع من يونيو، مع طمأنة أولبرايت بتفهم بلاده لحاجات إسرائيل المائية.

لم يُجِب الشرع عن استفسارات أولبرايت بشأن ما سيتخذه من إجراءات بشأن طمأنة إسرائيل حول المياه ومحطات الإنذار المبكر، وكان تَوَقُّع الشرع في محله بشأن ورقة النقاط الثماني، حيث أصر باراك على التواجد الإسرائيلي ولو بشكل محدود في إحدى محطات الإنذار المبكر.

تجمدت مساعي السلام لفترة بسبب إصابة الشرع بأم الدم الأبهرية وهو مرض يصيب الشريان الأبهر أكبر شرايين جسم الإنسان؛ مايؤثر على سريان الدم لمختلف أعضاء الجسم، وقد يُتَوَفَّى الإنسان مالم يُعَالَج بسرعة، وقد نُقِلَ الشرع إلى مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت ليجري جراحته الدقيقة في القلب بعدما تَعَذَّر إجراؤها في دمشق.

شعر باراك بالخطر، خاصةً أن ما حدث للشرع كان مفاجئًا وأربك خططه بصورة عنيفة، فما بالك لوحدث الأمر نفسه مع حافظ الأسد الذي تزيد صحته اعتلالًا يومًا بعد آخر؟

بالتأكيد ستضيع فرصة عقد سلام بين دمشق وتل أبيب،لذا طلب روس من بيل كلينتون إرسال رسالة لحافظ الأسد يخبره فيها أن القضايا الخلافية بين الجانبين قليلة ويمكن التغلب عليها في مرحلة لاحقة من المفاوضات، ولن يحل هذه القضايا العالقة سوى قائِدَي سوريا وإسرائيل.

تَصَلَّب الأسد في رده معللًا ذلك بحاجة سوريا للمياه كما إسرائيل،وفيما خص محطات الإنذار المبكر رفض حافظ الأسد وجودها من الأساس،وكان ردًا صادمًا لبيل كلينتون، وكانت الصدمة أكبر على إيهود باراك.

ألح باراك غير مرة على الرئيس كلينتون أن يتدخل بنفسه لدى حافظ الأسد، وذلك بعدما اكتفت أمريكا بعدم الرد على جواب الأسد "الرديء" بحسب تعبير دينيس روس،ووصل به الأمر إلى أن يطلب من الرئيس الأمريكي زيارة دمشق خلال عودته من مؤتمر الأمن والتعاون المنعقد في اسطنبول.

رفض كلينتون الانصياع لطلب باراك، مشددًا على أن الأسد تجب معاقبته لا مكافأته على إفشال مساعي السلام، مقترحًا تعديلات على الصيغة المقدمة للأسد،لكن باراك رفض مقترح كلينتون؛ خوفًا من تصميم الأسد على الحصول على مزيد من التعديلات التي ربما تُصَوِّر باراك لدى الرأي العام الإسرائيلي كرئيس وزراء يُفَرِّط في أرض إسرائيل،وقَبِلَ مُقْتَرَحًا آخر

بتجاوز بعض النقاط في وديعة رابين على أن تبقى الوديعة أساسًا للمعاهدة المستقبلية.

وافق باراك على مقترح كلينتون، لكن بقيت الطريقة التي ستعرض بها هذه الصيغة على حافظ الأسد، حيث اقترح باراك على كلينتون زيارة دمشق عقب نهاية مؤتمر اسطنبول في الثالث من ديسمبر 1999م، بحيث يصدم الأسد ويحرجه فيوافق على مقترحه، لم يجب كلينتون على مقترح باراك، لكنه طلب مهلةً ليرد عليه.

اعتبر روس الأمر مخاطرةً من جانب رئيسه، وعرض عليه عِوَضًا عن ذلك أن تعرج أولبرايت على دمشق خلال زيارتها المرتقبة للشرق الأوسط؛ لتعرف شروط الأسد لاستئناف المفاوضات، وقرر عرض الأمر على باراك لدى زيارته القريبة لتل أبيب ورام الله لاستكمال المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية.

خلال ثلاث ساعات هي مدة لقائه مع باراك عانى روس الأمرين في إقناع رئيس الوزراء الإسرائيلي بأمر زيارة أولبرايت لدمشق، شارحًا الغضب الذي سيتملك الرئيس الأمريكي إذا أحرجه الأسد وتمسك بوديعة رابين كاملةً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رأى روس أن الرئيس لا يذهب إلا لعقد اتفاق لا لرعاية مفاوضات، لكن باراك ازداد تشبثًا بالفكرة.

أجرى روس مناورةً أخيرةً مع باراك بالاتفاق مع كلينتون وأولبرايت وساندي بيرجر، فقد كان روس يعلم من لورد ليفي مبعوث رئيس الوزراء البريطاني توني بلير للشرق الأوسط أن حافظًا الأسد أخبره بموافقته على المضيفي عملية السلام، وأنه لا يضع عراقيل في طريقها، وبإمكان أولبرايت بعد رد الأسد السلبي أن تضغط على الأسد باعتبار ما فعله تراجعًا عن تَعَهُّدِه.

التقت أولبرايت وبرفقتها روس بالأسد في دمشق في السابع من ديسمبر 1999م، أبلغت أولبرايت الرئيس السوري أن الرئيس كلينتون غاضب من تراجعه عن تعهداته، معتبرًا أنه بذلك وضع سدًا أمام استئناف المفاوضات.

نفى الأسد أن يكون الأمر تراجعًا، بل إنه بما فعله إنما أراد إثارة أفكار يمكن التفاوض مع الإسرائيليين حولها وليس من باب وضع شروط مسبقة للمفاوضات كما اعتقد الرئيس الأمريكي.

ابتهجت أولبرايت وروس بما سمعاه، خاصةً أن ذلك يعني موافقة الرئيس السوري على استئناف المفاوضات وهو ما أكده الأسد، لكن وزير خارجيته الذي تعافى للتو من مرضه نبهه إلى أمر عام:

على أي أساس سيقتنع الرأي العام باستئناف المحادثات؟

لكن الأسد لم يجد في الأمر مشكلة وقال:

"نصرح أن المفاوضات استؤنفت من حيث توقفت."

سعد روس كثيرًا بموقف الأسد،وزادت سعادته عندما سأله الأسد عمن يريد من جانبه ليمثل السوريين في المفاوضات فَرَدَّ روس:

فاروق الشرع.

ولدى مغادرة أولبرايت وروس دمشق،أخبر الشرع نظيرته الأمريكية أن ممثل الجانب الإسرائيليفي المفاوضات يجب أن يكون باراك وليس وزير خارجيته ديفيد ليفي؛ حيث إن الأخير لا يتمتع بنفس الثقل السياسي لباراك،ورَدَّت أولبرايت بأنها ستبلغ رئيس الوزراء الإسرائيلي بطلبه ثم تنقل للشرع الجواب.

بمجرد وصولها تل أبيب،هاتفت أولبرايت باراك وأبلغته بطلب الشرع، فأبدى موافقته،واتفقا في صباح اليوم التالي على تنظيم اجتماعات تمهيدية في بليرهاوس بأحد أجنحة البيت الأبيض يومي الخامس عشر والسادس عشر من ديسمبر1999م، ثم ينضم إليها بيل كلينتون حتى الوصول لاتفاق،يعقب ذلك راحة لقضاء عطلة عيد الميلاد والألفية الجديدة.

الثامن عشر من ديسمبر1999م، أي بعد عدة أيام من بدء المحادثات التمهيدية، أبدى باراك قلقه من مناقشة السوريين موضوع ترسيم حدود

الانسحاب،وهنا عَنَّفَه دينيسروس،لكنه فكرفي طريقة للخروج من مأزق باراك السخيف؛ حتى لا توأد المحادثات في مهدها.

هداه تفكيره إلى أن يعرض على باراك مشروع اتفاق يتضمن نقاط الاتفاق مع وضع أقواس حول القضايا الخلافية،لكنه نَبَّه باراك إلى ضرورة ترافق ذلك مع تأكيده على وديعة رابين؛ حتى لايشعر السوريون بأنهم تعرضوا للخداع،وكعادة قادة الدولة العبرية يبحثون عن ربح قبل أن يحققوا مطالب الآخرين.

طلب باراك من روس عدة مطالب كان على رأسها استئناف المسار اللبناني، فوعده مبعوث السلام الأمريكي بمناقشة الأمر مع الأسد لكن عليه الانتظار قليلًا،وبدأ روس يفكرفيما يمكن أن يطلبه من الأسد كعربون مُرْضٍ لباراك.

استقررأى روس على أن يطلب من الأسد مساعدة باراك في الكشف عن مصيرثلاثة جنود مفقودين منذ اجتياح لبنان 1982م،سواءً كانوا أسرى أو قتلى ودفنوا في سوريا،وإن كان روس يرى أرجحية الاحتمال الثاني، ونقل روس اقتراحه لكلينتون الذي لم يتأخرفي تنفيذه.

في اليوم التالي هاتف كلينتون الأسد طالبًا منه استئناف مفاوضات السلام مع لبنان، وكذلك إرسال فريق أمريكي متخصص لسوريا لاستخراج رفات

الجنود الثلاثة مع حاخام يهودي يؤدي الصلاة عليهم،وافق الأسد ووصل الفريق الأمريكي المشكل من البنتاجون لسوريا قبل نهاية ديسمبر 1999م،لكنهم لم يعثروا على الجثث المطلوبة.

قدم حافظ دليلًا جديدًا على حُسْن نِيَّتِه، وذلك بإبلاغ كلينتون موافقة المسئولين اللبنانيين على استئناف المفاوضات مع إسرائيل، شريطة حدوث تقدم في المسارالسوري،وما إن بلغ ذلك باراك حتى أبلغ دينيس روس برغبته استئناف المفاوضات مع اللبنانيين في العاشر من يناير 2000م، مع الترويج لمنطقة التجارة الحرة في الجولان وفوائدها، طالبًا من روس إقناع الأسد بلقائه في واشنطن.

رفض روس طلب باراك، معلمًا إياه أن الأسد لن يحضر إلا إذا كان الاتفاق ينتظر التوقيع وليس قبل ذلك،وعلى الرغم من محاولة إدارة كلينتون تحقيق مطالب باراك ليخرج باتفاق سلام مع سوريا، إلا أن كلينتون وروس خشيا أن تتحول اللهفة الإسرائيلية للتفاوض مع سوريا ولبنان إلى أداة للمساومة التي يتقنها الأسد،وحسما أمرهما بضرورة عقد مباحثات موسعة للوصول لمراحل الاتفاق النهائية.

تشكل فريقا المفاوضات كالتالي:

ضم الوفد السوري فاروق الشرع ورياض الداوودي والعقيد إبراهيم عمر، فيما ضم الوفد الإسرائيلي باراك وداني ياتوم وشلوموياناي، وبقي فقط تحديد مكان المفاوضات.

استقر كلينتون وفريقه على بلدة شيفردزتاون بولاية فرجينيا القريبة من العاصمة واشنطن لتحتضن هذه المفاوضات، ومع حضور فاروق الشرع وإيهود باراك اعتقد كلينتون وروس أن الأمور تسير على ما يرام، لكن جعبة باراك كانت عامرةً بالمفاجآت السخيفة للأمريكيين والسوريين على حد سواء.

رفض باراك التفاوض على أساس حدود الرابع من يونيو أو التأكيد على وديعة رابين في مسودة اتفاق يضعها روس، وربط موافقته على أحد هذين الخيارين بموافقة الشرع على ترسيم الحدود حسب المطالب الإسرائيلية واستئناف المفاوضات (الإسرائيلية-اللبنانية).

ضغط كلينتون وأولبرايت على الشرع للموافقة على بدء اجتماعات فريق الأمن والسلام من الجانبين قبل اجتماعات فريق الأمن والحدود، لكن الشرع تَعَنَّت واشترط أن يجتمع الفريقان في وقت متزامن، وفض روس هذا الاشتباك بالموافقة على عقد مفاوضات غير مباشرة بين الجانبين لتذليل نقاط الاختلاف، وهو ما قبل به الشرع وباراك.

فيما يتعلق بالحدود، طالب الإسرائيليون بشريط ضيق على الجزء الشمالي الشرقي من بحيرة طبرية وشريط آخر على نهر الأردن في مقابل الانسحاب من باقي هضبة الجولان، بينما طالب السوريون بالانسحاب حتى حدود الرابع من يونيو بما يعني رفض المقترح الإسرائيلي.

أما بالنسبة للترتيبات الأمنية، طالب باراك بتواجد إسرائيلي محدود في محطات الإنذار المبكر بجبل الشيخ تمتد لما بعد الانسحاب من الجولان، إضافةً لثلاث مناطق منزوعة السلاح تمتد حتى دمشق هذا على الجانب السوري من الحدود، أما على الجانب الإسرائيليفمناطق انتشار محدود أمر مرحب به.

كالعادة كانت وجهة النظر السورية على النقيض، حيث رفض الشرع التواجد الإسرائيليفي محطات الإنذار المبكر، مع رفض مناطق الانتشار المحدود، والإصرار على كون الحدود بين الجانبين مناطق منزوعة السلاح.

بخصوص ترتيبات السلام، طلب باراك إقامة علاقات دبلوماسية كاملة تتمثل فيافتتاحسفارتي البلدين عقب المرحلة الأولى من الانسحاب من الجولان، وأن تضم اتفاقية السلام بنيةً تحتيةً تجعل من العلاقات بين البلدين في المجالات المختلفة أمرًا ممكنًا، في حين يقبل السوريون بتمثيل إسرائيلي محدود حتى اكتمال الانسحاب.

كان الخلاف الأكبر في هذه النقطة هو موعد الانسحاب؛ فالشرع يريده خلال ثمانية عشر شهرًا، فيما يريده باراك خلال ثلاثين شهرًا مع وجود آلية تسمح بتدفق المياه إلى بحيرة طبريا، مع ضمان سيادة إسرائيل على البحيرة في مقابل سيادة سوريا على الأرض.

قدم كلينتون مسودة معاهدة سلام بين سوريا وإسرائيل قدمها للشرع وباراك، طالبًا منهما أن يدرسا الورقة بعناية للتغلب على اختلاف وجهتي نظريهما حيالها، واتفق معهما على إرسال أية ملاحظات لروس، أما هو فسيغادر إلى واشنطن ويعود في وقت لاحق.

حقق الوفدان اختراقًا بشأن الأمن والحدود بعد موافقة العقيد إبراهيم عمر على مناطق أمنية بين الجانبين، مع مراقبة الحدود لمنع التسلل أو تهريب السلاح عبرها، رابطًا ذلك بموافقة إسرائيل على الانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو، لكن الإسرائيليين تفرغوا لمناقشة سبل مراقبة الحدود متهربين من التعهد بالانسحاب لحدود الرابع من يونيو.

في اجتماعات فريق المياه وتطبيع العلاقات، حيث وافق رياض الداوودي على مجلس إدارة لضمان نوعية المياه المتدفقة لبحيرة طبريا، في حين قَدَّم وليد المعلم الذي انضم للمباحثات لاحقًا عدة مقترحات لبناء الثقة بين الجانبين في التطبيع، لكن لم يقدم الإسرائيليون أيَّ شيء بالمقابل.

رفع المفاوضون السوريون تقاريرهم إلى الشرع ليرفعها بدوره إلى الأسد لدى عودته،وحاول كلينتون بشتى السبل الخروج بموافقة من باراك على اتفاق مبادئ مع السوريين، إلا أن باراك رفض معتبرًا أن السوريين لم يقدموا ما يكفي.

لدى عودة باراك إلى إسرائيل،تَسَرَّب نبأ المفاوضات السرية مع السوريين؛ فكانت المظاهرات الحاشدة الرافضة للتخلي عن الجولان في انتظاره، وذلك عقب أن أماط نمرود نوفيك المقرب من وزير العدل الإسرائيلي يوسي بيلين اللثام عنها.

في سوريا،تَعَرَّض الشرع بإيعاز من أجهزة الأمن والمخابرات السوريتين لنقد حاد من اتحاد الكتاب السوريين؛ لما اعتبره أعضاء الاتحاد تفريطًا في الحقوق السورية، وخلال مكالمة تلت هذه الواقعة رفض الشرع استئناف المفاوضات الإسرائيلية مع لبنان إلا بعد انتهاء ترسيم الحدود،وهو نفس ما كرره الأسد على أسماع بيل كلينتون عندما حاول إقناع الرئيس السوري بالعودة إلى المفاوضات.

وَسَّط كلينتون - بعد موافقة روس - السفير السعوديفي واشنطن بندر بن سلطان للقاء الرئيس السوري وإقناعه بالعدول عن قراره،وعقب انتهاء اللقاء الذي تم أواخر يناير 2000م، طلب بندر من روس أن يقابله في جنيف بسويسرا في الثامن والعشرين من يناير حيث سيحضر روس المنتدى

الاقتصادي العالميفي دافوس، ونظرًا لقرب سويسرا من الشرق الأوسط؛ فيمكن لروس العروج على إسرائيل لإطلاعها على ما يستجد بشأن السلام مع الأسد.

أخبر بندر روس أنه قضى ثلاث ساعات ونصف خلال اجتماعه الأخير مع حافظ الأسد، ثم أخرج من جيبه ورقةً قال إنها تقرير يريد الأسد نقله لمسئولي إدارة كلينتون.

أكد الأسد في ورقته أنه خُدِعَ خلال مباحثات شيفردزتاون بالرغم من ثقته الكبيرة في نوايا باراك،لكنه شدد على أنه لن يسمح بتكرار هذا الأمر؛ فهو ليس ياسر عرفات، أي ليس لديه القدرة على مجاراة المماطلات الإسرائيلية ثم الرضوخ لما يريده الإسرائيليون في النهاية.

حدد الأسد مطلبين لا لبس فيهما للوصول لاتفاق:

الأول:التزام باراك بالانسحاب إلى حدود الرابع من يونيو 1967م.

الثاني:ترسيم الحدود ولو بشكل سري حتى ينجز الاتفاق.

ما إن انتهى لقاء روس وبندر حتى عقد روس لقاءً مع أمنون شاحاك وزير السياحة الإسرائيلي الذي كان يحضر منتدى دافوس، وأعطاه رسالة بندر ليرسلها لباراك ويعطيه رئيس الوزراء الإسرائيلي رَدَّه النهائي.

اتصل أمنون بروس ليبلغه ثناء باراك على رسالة الأسد،وأبلغه أيضًا موافقة باراك على التقدم بمتطلباته الأساسية،لكنه يريد أن يبلغها بيل كلينتون للأسد ليحدد إذا كان الأسد جادًا بالفعل في الوصول لسلام أم يحاول الحصول على تعهدات فحسب.

كان باعث باراك في محاولة إحياء العملية السلمية مع سوريا هو خوفه من أن تظل الحدود (اللبنانية- الإسرائيلية) مضطربةً بعد الانسحاب الأحادي الجانب الذي سيقوم به باراك من جنوب لبنان ذلك الصيف؛ فالوحيد القادر على ضبط الحدود بين البلدين هو حافظ الأسد لنفوذه القوي لدى حزب الله.

التقى روس بباراك في تل أبيب في الرابع من فبراير 2000م، وشَدَّدَ على مضيفه أن يعلن للأسد بوضوح عن مطالبه لإتمام الاتفاق؛ حتى لا تصل الأمور لنفق مسدود كما حدث فيالشهر الماضي، وحتى لا يعرض الرئيس كلينتون للإحراج عند لقائه بالرئيس السوري.

طالب باراك بالشريط الضيق على بحيرة طبريا دون أن يحدد لروس هل هذا الشريط سيكون على حدود البحيرة الحالية أم على حدودها إبان حرب 1967م،وطالب بوجود إسرائيليفي محطات الإنذار بجبل الشيخ لمدة تتراوح بين ثماني وعشر سنوات، وكذلك بافتتاح سفارات البلدين عقب

المرحلة الأولى من الانسحاب، وزاد على هذه المطالب استعادة رفات الجاسوس إيلي كوهين الذي أُعْدِمَفي دمشق عام 1965م.

اتصل كلينتون بالأسد خلال وجود روس في إسرائيل عارضًا عليه مقابلته في الفترة بين التاسع والثاني عشر من مارس 2000مفي جنيف،لَكِنَّ الأسد رَدَّ بفتور طالبًاتأجيل اللقاء إلى الثالث عشر أو الرابع عشر من الشهر.

استفز الأسد كلينتون وعرض عليه مقابلته في الثامن عشر من مارس وهو نفس تاريخ مغادرة كلينتون للهند،وبعد جهد جهيد وافق الأسد على لقاء كلينتون في السادس والعشرين من مارس للوصول إلى اتفاق سلام.

خلال الاجتماع الذي حضره الرئيس الأمريكي وروس ومادلين أولبرايت بحضور الأسد والشرع،صَرَّح كلينتون أن باراك موافق على الانسحاب لحدود الرابع من يونيو 1967م لَكِنَّ الأسد اعترض قائلًا:

"الحدود يجب الاتفاق عليها بشكل مشترك."

استنكر كلينتون تراجع الأسد،وقال له في غضب:

"كيف ذلك؟! وزير خارجيتك قال المياه لكم والأرض لهم."

حاول كلينتون وروس إقناع الأسد بتوضيح حجم السيطرة التي يريدها باراك خارج البحيرة،لكن الأسد قطع شرحهم في حدة قائلًا:

"إن البحيرة كانت لنا ولم تكن لهم قط."

وعندما عرض كلينتون أمر محطات الإنذار المبكر رفض الأسد إقامتها فضلًا عن تواجد إسرائيليين بها،وخرج كلينتون خالي الوفاض من الاجتماع، واستطاع الأسد نسف الفرصة التي لاحت للحريري ليتخلص من القبضة السورية الخانقة على العنق اللبناني؛ فالأسد رأى أن بقاءه في لبنان هو الضامن لبقاء حكمه المستبد.

لكن وراء الأبواب المغلقة في جنيف حصل حافظ على مكسب ثمين بمباركة كلينتون لتوريث نجله بشار الحكم، وذلك مقابل سماح الأسد لشركة أوكسدنتال النفطية التابعة للحكومة الأمريكية بالتنقيب عن النفط في سوريا.

obeikandl.com